الترابط الحضاري بين جنوب الجزائر وبلاد السودان الغربي

د. عبد القادر قوبع، جامعة الجلفة

أ. أحمد بن مسعود. جامعة الجلفة

ساهمت كثير من العوامل المعنوية والمادية عبر تاريخ البشرية في تنوع العلاقات بين الأمم والشعوب والقبائل والبلدان والمناطق. ولا شك أن تفاعل الجزائر مع محيطها خضع للعوامل المذكورة، وقد ساهم الإسلام في توسيع دائرة الأمة والحضارة الإسلامية ممّا سهل تفاعلها والتقاءها في مواطن كثيرة منذ القرون الوسطى.[1]. وفي هذه الورقة العلمية سنحاول البحث في عوامل ومظاهر الترابط الحضاري بين الجزائر ومنطقة السودان الغربي خلال القرون الحديثة والتي شهدت حيوية غير مسبوقة.

أولا- عوامل ومظاهر الترابط الحضاري بين الجزائر والسودان الغربي:

من الملاحظ التفاعل الشديد بين العوامل والمظاهر فيما يتعلق بموضوع الترابط الحضاري بين الجزائر (جنوبها) وبلاد السودان الغربي وما جاورها، مع ضرورة الانتباه إلى شمول البعد الحضاري لحيز جغرافي أوسع من الحيز الجغرافي المدروس، إذ أن الحضارة الإسلامية استطاعت استيعاب وتحوير الحضارات التي احتوتها بفضل انتشار الدين الإسلامي. وفيما يتعلق بدور عوامل الترابط فإنها سرعان ما تصبح مظاهر ونتائج -كما سنجد من خلال معالجتنا المتواضعة للموضوع- لذا أدمجنا كثيرا من العوامل مع المظاهر وركزنا نماذج التفاعل والترابط الحضاري في الإنتاج العلمي باعتباره أكثر المظاهر محافظة على صورتها الأصلية بعيدا عن مزالق التهويل والتهوين، وهو ما يتيح رسم صورة ونسج تصور أقرب إلى ما كان عليه الترابط الحضاري بين المنطقتين خلال القرون الحديثة.

1. العامل الجغرافي:

لا يخفى أن الصحراء الإفريقية الكبرى التي تعد أكبر صحراء في العالم مثلت لفترات طويلة حاجزا وسدا قاسيا بين ضفتيها، ورغم ذلك استطاع سكانها ومجاوروها اجتيازها ونسج علاقات متعددة. وفي الجزائر مثلت منطقة توات منطقة إستراتيجية ومحطة استراحة ضرورية لأهل الصحراء الإفريقية للوصول إلى الشمال لأغراض شتى، وذلك نظرا لقلة مراكز الاستراحة الخاصة بالمسافرين وبالقوافل وندرة المدن المأهولة، وكثيرا ما يستشهد الباحثون بحملة السلطان المنصور السعدي على توات كمرحلة ضرورية وهامة للسيطرة على بلاد السودان فيما بعد، إدراكا منه بدورها في مد هذا الإقليم

الشاسع بعوامل القوة والحياة والازدهار. فتوات تعد مركزا يتوسط مختلف الطرق فمنها تتفرع الطرق التالية[2]

- نحو السودان الغربي (مالي وموريتانيا...)
- نحو سلجماسة (المغرب الأقصى)
- نحو أغدامس (ليبيا، مصر)
- نحو قبائل الطوارق والبربر (جنوب توات)
- نحو الشمال الجزائري (تلمسان ووهران والجزائر...)

2. **القوافل التجارية:**

عُرفت عدة طرق رابطة بين مختلف حواضر الصحراء المترامية تجوبها القوافل التجارية. وقد اشتهرت الطرق التجارية التالية[3]

- طريق سجلماسة- ولاته- تنبوكتو- جني- غاو
- طريق تلمسان- غرداية- توات- تنبكتو
- طريق تغازا- تنبكتو
- طريق الجريد- واد سوف- ورقلة تنبكتو- غاو
- طريق مصر- زويلة- تادمكة- تنبكتو- غاو.

ومن حسن حظ منطقة توات والجزائر ككل أن انعكس تراجع الطريق التجاري الغربي (سجلماسة. ولاته. غاو) وازدهار مملكة سنغاي بالفائدة على ازدهر الطريق التجاري الرابط بين توات والصحراء(السودان).[4]

وما يهمنا في حركة القوافل التجارية هو إسهامها في نقل المخطوطات بين الجهتين، حيث ذكر الحسن الوزان بأن القوافل كانت تحمل بالمخطوطات لغلاء ثمنها وضمان ربحها، فثمن المخطوطة في بلاد السودان يصل إلى الضعف ونصف الضعف.[5]

ولا نجد كاتبا كتب عن العلاقة بين المنطقتين (شمال إفريقيا وبلاد السودان) إلا وتطرق لأهمية المخطوطات وحضورها في هذه العلاقة، كما تميزت هذه القوافل بوجود التجار الفقهاء فيها جريا على عادة التجار المسلمين الأوائل الذين ساهموا في نشر الإسلام في آسيا، فكان تجار إفريقيا يكررون هذا العمل (المقدس) والذي يجمع لهم غرض الدنيا وجزاء الآخرة[6] .

ولا شك أن الروايات الشفوية قد احتفظت بأسماء عدد ممن تصدوا لهذا، ولكن المشهور منهم في توات حسب الباحثين هما:

- امحمد بن ابي محمد الأمريني (ت 1008هـ/ 1600م)

- العالم (الفقيه) سيدي علي بن حنيني (ت 1115هـ/ 1703م) الذي امتلك قافلة من 900 جمل تتنقل بين توات وبلاد السودان، وقد جعل أرباح تجارته لفائدة زاويته بزاقلوا، وهو ما يجعلنا نميل إلى أنه قد سعى لجمع المخطوطات وتبادل الآراء العلمية (الدينية) ونقلها إلى منطقته.

3. هجرات السكان و تنقلاتهم:

أشار كثير من الجغرافيين والرحالة والإخباريين القدامى والمحدثين إلى الحركة الدائمة بين سكان شمال إفريقيا وجنوب الصحراء خاصة السودان الغربي واستقرار بعضهم، فذكر ابن بطوطة وعبد الرحمن السعدي استقرار أبناء الصحراء الجزائرية في السودان الغربي، كما ذكر السعدي بأن مقبرة تنبكتو كانت تضم حوالي 50 تواتيا كلهم من العلماء والزهاد.(7)

ممن أشار إلى هذا الحضور والترابط أيضا ابن حوقل، الكرخي، ابن بطوطة، ابن خلدون، الحسن الوزان، عبد الرحمن السعدي، أبو سالم العياشي، الحاج ابن الدين الأغواطي، الرحالة الألماني جيرهارد رولف، المؤرخان الفرنسيان مارثان وبرنارد سافرو...(8)

وكلما ورد الحديث عن الترابط بين الصحراء الجزائرية وبلاد السودان إلا ووقع الاستشهاد بقبيلتين كبيرتين هما كنته والفولان اللتين تفرعتا في المنطقتين ومثلتا عامل ارتباط وتفاعل قوي.

فبالنسبة لقبيلة كنته عرف مستقرها الأصلي في توات لكن ابتداء من عهد سيدي محمد الكنتي (ق 9 هـ/ 15م) الذي كان دائم التنقل بين توات و أدرار (موريتانيا) بدأت هجرات الكنتيين نحو الصحراء، خاصة بعد تزعمها للطريقة القادرية ومساهمتها في نشرها في افريقيا فأضحى نفوذ كنته وانتشار أفرادها من توات شمالا الى كشنا جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا الى بحيرة تشاد شرقا.(9)

أما الفولان أو إفلان فتعتبر من أكبر مجموعات إفريقيا الغربية بل إنهم في وقتنا الحالي ينتشرون في أكثر من 20 بلدا إفريقيا. وقد استقر علماء وأعيان و فروع منهم في الصحراء الجزائرية خاصة في توات، نذكر منهم:

- الشيخ عبد الله بن أحمد الفولاني (ت 1194هـ/ 1780م) الذي درس على يد الشيخ عبد الرحمن الزقلاوي بزاوية زاقلو ثم على الشيخ عبد الرحمن بن عمر التينلاني بزاوية تينيلان ومنها إلى تيديكلت التي توفي بها.
- استقرار فرع محمد بن مالك وأولاد بلعالم في منطقة تيديكلت بقصور ساهل وأولف وعين صالح وفي قصر تيمادنين (توات الوسطى).
- ظهور طبقة من العلماء الفولانيين التواتيين (أصول فولانية وتربة وتربية تواتية): منهم الشيخ حمزة بن الحاج أحمد الفولاني الساهلي (ق 13 هـ)، والشيخ محمد الحسن بن محمد الحاج بن مالك الفولاني القبلاوي.(10)

كما استقرت قبائل ومجموعات أخرى بالصحراء الجزائرية نذكر منها

- استقرار فرع أولاد بن دراعو (التكرور) بتوات.
- قبائل وافدة من منطقة تيمقطاو (السودان الغربي) كان وراء تأسيس قصر تمقطن في تيديكلت.
- عائلة إدوعلي في قصر أعباني وفد فرع منها من شنقيط.
- فروع قبيلة أولاد ملوك متواجدة في الجزائر والسودان مثل قبيلة أولاد ملوك التي لها فرع في توات باسم أولاد عمر ملوك وفرع في منطقة الحوض بموريتانيا وفرع في أزواد بمالي.[11]

هذا الارتباط العائلي سيساهم –كما سنرى- في تنشيط الحركة العلمية والثقافية والروحية.

4. الرحلات العلمية:

ساهم الطلبة والفقهاء والعلماء ومقدمو ومريدو الطرق الصوفية مساهمة كبيرة في الترابط بين الجزائر وبلاد السودان، مستفيدين في ذلك من الترابط العائلي وحركة القوافل التجارية ومواسم الحج والإجازات العلمية والصوفية[12] ، نذكر من هذه الرحلات:

- رحلتا أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التنيلاني (ت 1189هـــت/1775) الى بلاد التكرور:

كانت رحلة أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التنيلاني الأولى رفقة الشيخ عمر بن محمد الكتبي، دامت شهرا كاملا، ويذكر الباحث مبارك جعفري أنه اطلع على وصفها في فهرسة عبد الرحمن بن عمر، وفي هذه الرحلة زار التنيلاني عشيرة "تاودني" عشيرة رفيقه الكنتي ثم قرية مبروك ثم أروان التي التقى فيها الشيخ أبا العباس أحمد بن صالح السوقي التكروري فدرس عليه الخزرجية (في علم العروض)، كما ترك لنا وصفا وإعجابا وتأثرا بطريقة تدريسه.

أما الرحلة الثانية للتنيلاني فزار فيها أروان والتقى فيها مرة أخرى بشيخه أحمد السوقي لاستكمال ما بدأه قبلُ (الخزرجية) كما درس عليه ألفية العراقي (في علوم الحديث). ثم انتقل الى تنبكتو التي مكث بها أكثر من عشرين يوما ومنها قفل راجعا لأروان التي استجاز شيخه السوقي فيها فأجازه.[13]

- رحلات عمر بن محمد الكتبي:

ساهم عمر بن محمد الكتبي في دور وسيط بين علماء توات والسودان خاصة أنه كان دائم التردد على أهله في بلاد التكرور، ويذكر عبد الرحمن التينلاني أن الكتبي هو من عرفه وقدّمه للشيخ أحمد السوقي.[14]

- رحلة أبي الأنوار بن عبد الكريم التنيلاني (ت 1168هـ/1755م): مارس التعليم والتجارة في بلاد أزواد، واليه يرجع تأسيس قرية المبروك (شمال مالي) حوالي 1713م. كما يوجد في الأزواد عدد من شيوخ كنته مثل الحاج أحمد بن أبي بكر والشيخ المحجوبي.

- رحلة مولاي هيبة بن مولاي محمد (ت 1238هـ/1822): وهو سبط الشيخ أبي الأنوار بن عبد الكريم التنيلاني وخليفته على زاويته، حيث انتقل إلى بلاد التكرور وزار منطقة والن، و أسس بها مسجدا وقصبة، كما زار آقدز وتيكدة، وقد اشترى مخطوطات كثيرة لصالح مكتبة زاويته في تيديكلت.[15]

- رحلة محمد بن أبّ المزمري (ت 1160هـ/1747): زار تنبكتو و أروان ودرّس بها علم العروض والقوافي، وممن درس على يديه سيدي أحمد بن صالح السوقي.[16]

أما الشيخ محمد بالعالم الزجلاوي (ت 1212هـ/1798) فقد استقر ببلاد التكرور مدرسا ومفتيا.

5. دور الطرق الصوفية والزوايا:

ساهمت الطرق الصوفية مساهمة فعالة في ربط التواصل وتقوية التفاعل وتكوين إطار مشترك متطابق بين مختلف مناطق الصحراء الجزائرية وبلاد السودان الغربي، وذلك من خلال اعتناق المريدين لمبادئ الطريقة نفسها (قادرية، تيجانية) وزيارات شيوخها ومقدميها وزواياها ونشر أورادها ومؤلفاتها وتراثها الشفوي والمكتوب على السواء، فإلى الصحراء الجزائرية يعود الفضل في نشر مبادئ عدد من الطرق الصوفية في إفريقيا.

ودونما تفصيل في سيرة محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يعود إليه الفضل في نشر الطريقة القادرية في مختلف مناطق بلاد السودان الغربي[17]، نورد بعض مظاهر الترابط الروحي بين المنطقتين، فمولاي زيدان بن محمد بن مولاي أحمد بن سيدي حم (ت 1202هـ/ 1788) كان سفيرا للشيخ مولاي عبد المالك الرقاني في بلاد التكرور التي زارها أربع مرات وساهم في نشر القادرية هناك إذ استقر بِولاته، فكان الناس يتزاحمون عليه طلبا للبركة والصلاح في شؤون الدنيا والآخرة كما يروي البرتلي في كتابه حيث تحدث عن نفسه قائلا بأنه قصده في سبعين حاجة من حوائج الدنيا والآخرة وأن الله قد قضى له كل ما طلبه من حوائج الدنيا وهو يأمل في قضاء حوائج الآخرة على يد الشيخ مولاي زيدان بفضل الله.[18]

- الشيخ علي بن أحمد بن علي بن أحمد الرقّادي (ت 1194هـ/ 1780) وصفه البرتلي بالصلاح والعلم والبركة، ويروى أنه كان كثير التنقل بين زاوية أجداده في توات وبلاد التكرور.

- سيدي محمد الإداوعلي (توفي قبل 1198هـ/ 1784): استقر بتمنطيط مدرسا قادما من شنقيط ثم استقر بقصر اعباني بفنوغيل حيث أسس زاوية ومدرسة، تعاقب في الإشراف عليها خلفه.[19]

كما أخذ الفقيه الطالب الأمين بن الطالب الخرشي (ت 1166هـ/ 1753) حِكم ابن عطا الله على الشيخ أحمد بن عمر التواتي. أما أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت 1202هـ/

1788) صاحب كتاب "فتح الشكور" فقد أخذ ورد الشيخ عبد المالك الرقاني عن طريق تلميذه مولاي زيدان، ويتأكد هذا الارتباط والولاء في تخصيصه ترجمة مستقلة لكليهما في كتابه عن أعيان التكرور رغم أنهما ليسا تكروريين [20]، كما نال الشيخ الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد البرتلي الولاتي (ت 1165هـ) مبادئ التصوف والورد الغازي الناصري على يد الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن عبد الله التيسابيتي (توات) [21]، أما الشيخ حمّى الله مؤسس الطريقة الحمّالية فقد أخذ مبادئ طريقته على الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله المدعو الشريف مولاي الأخضر مدرس التيجانية في السودان الغربي.[22]

6. ركب الحج:

مثّل الحج مناسبة دينية هامة للمسلمين في مختلف بقاع الأرض، وانعكست هذه المناسبة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الفكرية والأدبية والمذهبية والروحية...وفي إفريقيا ساد الأمر نفسه، فرحلة الحج هي أهم رحلة في حياة المسلم الدنيوية نحو بيت الله الحرام واستذكار ملحمة الإسلام الأولى كما سمعها لسنوات طويلة من الروايات الشعبية وفقهاء وعلماء وأدباء السيرة النبوية.[23]

وشكّل مناسبة للقاء والتعارف بين قوافل الحجيج. فكان الحجاج الأفارقة من السودان الغربي وذلك منذ وصول الإسلام إليه يجعلون توات محطة استراحة وتزود، فاحتفظت الأخبار بمرور الملك كنكن موسى عام 1325م على توات واستقراره بها لأيام [24]. كما مرّ بتوات الباشا علي بن عبد القادر (1042هـ/ 1632م) في رحلة حجه رفقة الفقيهين الشهيرين: أحمد بن عبد العزيز القوراري والشيخ محمد بن الشيخ أحمد بابا التنبكتي.[25]

وبتدقيق اكبر وسعيا لإبراز التفاعل والتلاقح العلمي والروحي بين الجزائر (ممثلة في واجهتها الأولى نحو السودان: توات) نحاول إيراد قائمة لأشهر الفقهاء والعلماء السودانيين الذين زاروا توات بمناسبة رحلة الحج وأثره: [26]

- الشيخ الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة العلاوي (ت 1146هـ/ 1733م) رفقة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة كانت حوالي عام 1709م.
- الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي (ت 1199هـ/ 1785م) حيث حمل معه خزانة نفيسة من الكتب في طريق عودته من الحج.
- الشيخ البشير بن أبي بكر بن الطالب البرتلي (ت 1214هـ/ 1799) الذي حج عام 1789.

ثانيا: نماذج من التفاعل العلمي:

لاشك أن التفاعل العلمي لا يقتصر على ما هو مخطوط، فالحياة العلمية في الحضارة الإسلامية كانت تعتمد على نظام الحلقات والحفظ والمناظرات بشكل كبير، ولكن جزءا معتبرا من هذا التراث تم حفظه أيضا في المخطوطات، ومن غير الممكن رصد كل ما يعكس التفاعل العلمي بين المنطقتين من نسخ ونظم وشروح واختصارات وحواش للأعمال العلمية المهمة التي تصل إلى إحدى المنطقتين، فحسبنا إيضاح مدى الترابط والتفاعل وانسجام المنظومة الحضارية والعلمية (المذهبية) إلى درجة التطابق، وسنقتصر على النماذج التالية:

1- فتوحات ذي الرحمة والمنة في شرح إضاءة الدجنة:

انتشر كتاب "إضاءة الدجنة" انتشارا واسعا في مصر والشام والحجاز والمغرب، وقد قام المقري –بنفسه- بتدريسه في كثير من المناطق المذكورة، وظل يحتل مكانة خاصة لدى الأشاعرة عموما والأفارقة خصوصا، لا يتفوق عليه في المكانة غير صغرى السنوسي [27]. وهو عبارة عن قصيدة رجزية (نظم) من خمس مئة بيت لأحمد المقري (الحفيد)، اشتملت على "فصول من قواعد علم التوحيد وأصول جمعت من الفن غرر فرائده، وأحاطت من الكلام على جميع درر فوائده في نظم عجيب وأسلوب غريب أبدع فيها أحسن ترتيب وهذب فيها غية التهذيب، ونظم فيها ما في المطولات بأوجز لفظ وأحسن ترتيب" كما وصفها" شارحها ابن الأعمش.

كتبها المقري إبان زيارته للحجاز عام 1029هـ، وقام بتدريسها في الحرمين الشريفين، ولم ينهها إلا في القاهرة عام 1036هـ.

وقد حظيت "إضاءة الدُّجُنة" بشروح كثيرة من الأفارقة، وسنكتفي بشرح الشيخ ابن الأعمش العلوي الشنقيطي، المسمى "فتوحات ذي الرحمة والمنة في شرح إضاءة الدُّجُنة ". والتي مطلعها هو:

يقول أحمد الفقير المقري المغربي المالكي الأشعري
الحمد لله الذي توحيده أجلّ ما اعتنى به عبيده
العالم الحي القديم الباقي القادر الغني بالإطلاق
مرشدنا من فضله وجُوده بصُنعه المُعرب عن وجُوده

أما الأبيات الأخيرة منها والتي توضح عدد أبياتها وتاريخ الانتهاء منها ومكانها :

وهاهنا نظم العقائد انتهى مبلغا لمن وعاه ما اشتهى...
وفاء عدّه بنصف الألف والرمز بالجمّل فيه أُلفي
وكان إتمامي له في القاهرة وفيه تاريخ جلاه الظاهره
وارتجي من مانح العطايا سبحانه الغفران للخطايا
والفوز بالنجاة والأمان ونيل ما أنوي من الأمان
بجاه نبراس الهدى الوهاج أحمد من أرشد للمنهاج
كنز البرايا الهاشمي العربي منيلهم ما أملوا من أرب
عليه مع آل وأصحاب علوا قدرا وأتباع بإحسان تلوا

أزكى تحياتي وأسمى وأتم يزكو بها مبتدأ ومختتم

ويهمنا الطريق التي أخذ منها الشارح (ابن الأعمش) إجازة هذه القصيدة حتى نتذكر ازدهار هذه الطريقة العلمية ودورها في الترابط العلمي بين مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فابن الأعمش أخذها عن شيخه ابي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد البوحسني الشنقيطي الذي زار الحرمين الشريفين وجاء بهذه القصيدة راغبا في وضع شرح لها، يقول ابن الأعمش" ...وقد وجّه إلي بنسخة منها بعد أن أجازنيها في جملة ما أخذت من الإجازات منه حفظه الله...".[28]

وقد انتشر شرح ابن الأعمش انتشارا واسعا في مختلف حواضر وبوادي وأدغال الصحراء الإفريقية[29] ، ويهمنا أيضا قوة اعتماد الأفارقة والشناقطة هنا على علماء الجزائر خاصة على صغرى السنوسي حيث اعتمد عليها الشارح اعتمادا كبيرا لفهم وتوضيح مقاصد صاحب النظم، وقد نبّه إلى ذلك بقوله أن كلمة "الشيخ" الواردة في الشرح لا يقصد بها غير محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقيدة، كما اعتمد على علماء جزائريين آخرين كأبي العباس بن زكري.[30] يقول الشارح: "...معتمدا فيه على عقائد الشيخ الإمام الولي الصالح الزاهد أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي رضي الله عنه، وهو المعبر عنه بالشيخ في هذا الشرح، إذ عليه المعول في غالب النصوص، وربما أوردت كلام عصريّه الإمام أبي العباس ابن (كذا) زكري رحمه الله حيث يكون للمطلوب كالفصوص...".[31]

ويذكر محقق إضاءة الدجنة الشيخ يحيي ولد سيدي أحمد بأن النسخة التي اعتمدها هي نسخة قديمة يرجع تاريخها إلى عام 1167هـ وناسخها هو محمد بن محمد بن أحمد القاوي، نسبة إلى مدينة قاو، وهي تحت رقم 3075 في مكتبة عبد القادر ممّا حيدرة.[32]

1-1- علاقة الشارح بالحياة العلمية الجزائرية:

ذكرنا من قبل بأن الشارح (ابن الأعمش (ت 1107هـ/ 1695م)) قد تعرّف على قصيدة إضاءة الدجنة عن طريق شيخه البوحسني الشنقيطي الذي أجازه فيها، ولكن هناك روابط أبعد من ذلك تتمثل في أصول عائلته (إدوعلي) التي تعود مواطنها الأولى إلى مدينة تبلبالت ثم زحفت نحو توات غرب الجزائر خلال القرن السادس الهجري لتستقر بمنطقة شنقيط في موريتانيا، وهاجرت مجموعة منها نحو منطقة تكانت (مدينة تجكجه) وسط موريتانيا ومجموعة أخرى منها نحو جنوبي غربي موريتانيا...[33]

كما لم تنقطع زيارات ومصاهرات هذه العائلة (إدوعلي) بالجزائر طيلة قرون، خاصة توات، وقد تنقل كثير من تجار وصلحاء هذه العائلة بين الجزائر وشنقيط، منهم سيدي محمد إدوعلي المعروف بابن بك، الذي ساهم في الحياة العلمية والروحية في توات خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، كما استقر أبناؤه في قرية أعباني (أدرار) منذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادي [34] .أما

الشيخ محمد عبد الله بن الخرشي العلوي فكان من مريدي الشيخ باي بن الشيخ سيدي اعمر، واستقر عند آل سيدي امحمد أبي نعامة الهامليين في سلبورق شمالي غرب تمنراست وصاهرهم، وفيها توفي، أما في ورقلة فظل مروره في ثلاثينات القرن العشرين الميلادي في طريقه إلى الحج ذكرى روحية كبيرة. كما لا يخفى ارتباط هذه العائلة بالطريقة التيجانية وإشرافها على نشرها في موريتانيا.[35]

2- اللطائف الأنسية على نظم العقيدة السنوسية:

لا يخفى ما كان للعقيدة السنوسية من أهمية لدى المغاربة والأفارقة على السواء، فحفظوها وشرحوها ونظموها واختصروها وجعلوها مقررا رئيسا في دراستهم على اختلاف مستويات التعليم. ولعل ما يعكس لنا تجذرها في حياتهم العلمية والدينية والاجتماعية أن الشناقطة كانوا يطلقون اسم العقيدة السنوسية على بناتهم، وتحتفظ لنا الروايات باسم الصغرى بنت بارك الله بن احمد با زيد الباركية، التي سماها أهلها على صغرى عقائد السنوسي. وقد نظم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بغيع العقيدة السنوسية، وقال عنه البرتلي الولاتي في فتح الشكور:" نظم أم البراهين نظما حسنا بديعا من أحسن ناظميها نظما اقبل عليه تلاميذ إفُلّان وغيرهم ولعله علامة القبول والله أعلم".

ولا عجب أن يتصدى هذا الشيخ لنظمها فهو من عشيرة الفولان التي يستقر كثير منها في منطقة آولف بأدرار (الجزائرية). بينما استقرت فروع منها في مختلف مناطق غرب افريقيا تمبكتو. وهو من أسرة علمية معروفة تكلم عن أعلامها البرتلي واحمد بابا التنبكتي اللذين درسا على عدد منهم. ويذكر البرتلي أن محمد بن أحمد بن القاضي محمد بن بكر بغيع الونكري كان حيا عام 1041 هـــ.[36]

وفي نسخة من هذا النظم متواجدة بمكتبة الغازي خسرو بك بسراييفو، تحمل عنوان " اللطائف الأنسية على نظم العقائد السنوسية" كتب فيها أن الناظم هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيع الونكري السوداني التنبكتي 1020 هـــ/1611م، وهي تحت رقم 731 مجموع 3357/1، وعدد أوراقها 17 ورقة. كما توجد نسخة أخرى في مكتبة ممّا حيدرة بتنبكتو، تحت رقم 3379 بعنوان نظم صغرى السنوسي للناظم أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بغيع، وعدد أوراقها 8 ورقات، تعود ملكيتها للسيد علي بن عمر المدعو بغُلٌ بن حم بن غان دَرغَمِيٌ، أما عدد أبياتها فهو 173 بيتا.[37]

2-1- نص النظم:

"بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد نبيه وآاله وصحبه وسلم تسليما، قال الشيخ الفقيه المحقق المدقق النحوي الأصول (كذا ولعلها الأصولي) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بغيع تغمده اله آمين. خطبة الناظم:[38]

يحمد ربه بخير الأحمد الونكري محمد بن أحمد

مصليا على الرسول دائما وآله وصحبه غمائما
وبعدها عقدا من العقائد نظمته خيرا من القلائد
نظمت فيه دررا نشيره صغرى إمامنا بها شهيرة
شيخ الهدى إمامنا السنوسي الخاشع المخبت للقدوس
فالله نسأل القبول منا ونفع حافظ وتالٍ منا"

وفي ختامها يقول:[39]

"وصلّين يا ربنا وسلما على الرسول المصطفى مكرما
ما ذاكر ذكره وغفلا عن ذكره غافله وأهملا
والأنبياء والمرسلين جمعا والطاهرين آل كل أجمعا
وعن جميع صحبهم رضوان وتابعيهم ولهم إحسان
والحمد لله على ما أولى وهو حسبنا ونعم المولى".

وينبغي التنويه إلى أن ظاهرة شرح ونظم التآليف لم تقتصر على الجانب الديني فقط بل شملت فنونا أخرى خاصة اللغة وعلومها وآدابها ، ونذكر على سبيل المثال ولفت الانتباه شرح المختار بن الطالب عبد الله الشنقيطي الولاتي على منظومة ابن أبّ المزمري للمقدمة الأجرومية سمّاه "المعين المبارك على منظومة ابن أبّ المزمري للمقدمة الأجرومية".[40]

3- مخطوطات تواتية (جزائرية) في خزائن افريقيا الغربية:

بحكم الترابط الذي تحدثنا عنه بين الجزائر عموما (توات خصوصا) ومنطقة السودان الغربي، تحتفظ الخزائن الإفريقية بكثير من المخطوطات الجزائرية لاسيما منطقة توات سواء بالاقتناء والمبادلة أو بالنسخ، وقد تم ذلك عبر قرون من الزمن ولا زال مستمرا إلى أيامنا هذه، مع تفوق واضح وكبير للجزائر باعتبارها المركز. ففي خزائن توات مثلا توجد بعض المخطوطات السودانية ولكن عددها قليل مقارنة بعدد المخطوطات التواتية المتواجدة بالبلاد الافريقية، ومما هو متوفر ببلاد توات من المخطوطات الافريقية (السودانية) نجد "ضياء التأويل في تفسير القرءان" لعثمان بن فودي وشرح الولاتي على نظم المكودي ومخطوط "كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج" لأحمد بابا التنبكتي.[41]

وقد قام الاستاذ الباحث أحمد أبا الصافي جعفري باجتهاد إحصائي أولي للمخطوطات التواتية في خزائن غرب افريقيا، وقد تعهد بالعمل على إعداد فهرس شامل لذلك، جاء الإحصاء كالتالي:[42]

- مكتبة أحمد بابا بتنبكتو (مالي): 127 مخطوطا (منها مخطوطات عبد الكريم المغيلي ومحمد بن أبّ المزمري وأبي القاسم الزجلاوي)
- مكتبة ماما حيدرة (مالي): 84 مخطوطا

- مكتبات غانا: 31 مخطوطا

- مكتبتا شنقيط وودان (موريتانيا): 8 مخطوطات

- مكتبة دار الكتب والوثائق القومية (مصر): 8 مخطوطات

- مكتبتا كادونا وأبادان (نيجيريا): 6 مخطوطات.

3-1- مخطوطات في مكتبة عبد القادر ممّا حيدرة، تنبكتو:

- مجالس المناظرة أو المحاضرات، لمحمد بن محمد بن أحمد المقري (ت 758هـ)، الرقم 3056. عدد الأوراق 56 ورقة. الخط صحراوي. تاريخ النسخ: شعبان 1142هـ.

- المنظومة المسماة بالجوهرة لأبي مدين شعيب، رقمها 1391، عدد الأوراق 5، خط سوداني. مطلعها:

مقصورة سميتها بالجوهرا صقلا لما شان الحجارة من الصدا

ختامها: ثم على اصحابه وآله هم نجوم الاهتدا لمن سرى

- منظومة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مدين شعيب، الرقم 2634، عدد الأوراق 5، الخط مغربي. مطلعها: يا من علا فرأى ما في القلوب وما تحت الثرى وظلام الليل منسدل

خاتمتها:

وصل الصلاة مع السلام عليه مـا اتصل المدى مع آله الفضلاء.

3-2- معهد أحمد بابا التنبكتي تنبكتو:

- قصيدة استسقاء لأبي مدين شعيب، الرقم 2366، عدد الأوراق: ورقة واحدة.

مطلعها: يا من يغيث الورى من بعدما قنطوا ارحم عبيدا أكفّ الفقر قد بسطوا

ختامها: صلى عليه صلاة لا نفاد لها من اسمه باسمه في الذكر مرتبط

- المُشجّرة، مكتوب في التصوف للغوث أبي مدين، الرقم 2853، عدد الورقات 6، الخط صحراوي.

مطلعها: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم قال محمد بن عبد الله بن مزاحم اللخمي الجزائري...."[43].

ختامها:"...وقال رضي الله عنه: الملك ملكان: ملك البلاد وملك قلوب العباد والملوك على الحقيقة هم الزهاد. تمت الحكم بحمد الله تعالى وحسن عونه"[44].

نخلص من خلال هذه الورقة العلمية إلى أن الترابط الحضاري بين الجزائر وبلاد السودان الغربي ظاهرة ازدهرت منذ وصول الإسلام إلى هذه البلاد، وقد ساهمت في ذلك عوامل كثيرة دينية مذهبية وسياسية اقتصادية وجغرافية إستراتيجية واجتماعية، وانعكس هذا الترابط في مظاهر عديدة كتقارب العادات والتقاليد والمصاهرة وتبادل الزيارات وتشابه المذهب العقدي والفقهي والطرق

الصوفية (القادرية، التيجانية) والتفاعل العلمي، وقد اقتصرنا على نماذج من هذا التفاعل العلمي متمثلة في عرض لشرح نظم "إضاءة الدجنة" المسمى "فتوحات ذي المنة" و في نظم "اللطائف الأنسية على نظم العقيدة السنوسية"، كما عكس انتشار عدد من التآليف الجزائرية في الخزائن الإفريقية المختلفة هذا الترابط والتفاعل العلمي الكبير رغم بُعد المسافات الجغرافية وقساوة الطبيعة، وهو ما يثبت لنا أن حركة الأفكار والمذاهب والإنسان بإمكانها تجاوز كل هذه العقبات، كما أنه بالإمكان استثمارها في آفاق أفضل وأكبر.

- الإحالات والهوامش:

1- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوربي في افريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 52

2- نفسه، ص 29.

- أحمد ابا الصافي جعفري، من تاريخ توات أبحاث في التراث، منشورات الحضارة، الجزائر، 2011، ص 394.

- قال ابن خلدون عن توات"وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار المترددين من المغرب الى بلد مالي من السودان لهذا العهد ومن بلد مالي إليه بينه". اما العياشي فكتب أنها مجمع القوافل التجارية العابرة للصحراء جميعا لما توفره من فرص العرض والطلب".

3- يوسف سليماني، منابر العلم والثقافة في إفريقيا وجنوب الصحراء "حاضرة تنبكتو"، الثقافة الإسلامية (مجلة محكمة نصف سنوية)، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ع 12، 2014، ص 60، 61

4- مبارك بن الصافي جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون، ط1، 2009، ص260، 261

5- الحسن الوزان(ليون الافريقي)، وصف افريقيا، مج2، تر محمد حجي محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 167.

6- طاهر بخدة، علاقة حواضر المغرب الأوسط (الجزائر) بممالك السودان الغربي، الثقافة الإسلامية، ع 12، 2014، ص 33

7- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، طبع وتحقيق هوداس، باريس، 1981، ص 50.

8- أحمد جعفري، مرجع سابق، ص ص 192، 193

9- انظر: زبادية، مرجع سابق، ص ص 92، 93. أحمد جعفري، مرجع سابق، ص ص 114، 122

10- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص ص 277، 278

11- نفسه، ص 278

12- زبادية، مرجع سابق، ص ص 57، 58 . ص ص 63، 69

13- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 296

14- نفسه، ص 298

15- نفسه، ص 299

16- أحمد با الصافي جعفري، محمد بن أبّ المزمري 1160هـ حياته واثاره، دار الكتاب العربي، القبة، 2004

- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 300

17- مبروك مقدم، الشيخ بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إسهاماته في نشر الثقافة الإسلامية بإفريقيا الغربية في القرن 9 هـــ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004

- زبادية، مرجع سابق، ص ص 151، 160

18- البرتلي (أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق) ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 100

19- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 303 .

- أحمد با الصافي جعفري، رجال في الذاكرة الشيخ سيدي محمد الإداوعلي ق 12 حياته وشعره، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2008، ص ص 13، 16

20- البرتلي، مصدر سابق، ص 66. ص 201 .

21- نفسه، ص 127

22- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 308

23- زبادية، مرجع سابق، ص 57

24- محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس و دولافوس، باريس 1964، ص 34، 36

25- السعدي، ص ص 228، 233

26- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص ص 261، 266

27- يحي ولد سيدي أحمد، العقائد التلمسانية بأقلام افريقية، ج6، دار المعرفة، 2011، ص 5

28- نفسه، ص 14

29- نفسه، ص 16

30- نفسه، ص 16

31- نفسه، ص 26

32- نفسه، ص 16

33- نفسه، ص 20

34- أحمد جعفري، رجال في الذاكرة الشيخ محمد إداوعلي...

- يحيي ولد سيدي أحمد، مرجع سابق، ص 21

35- نفسه، ص 21

36- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 277

- يحي ولد سيدي، مرجع سابق، ص 329

37- نفسه، ص ص 326، 327.

38- نفسه، ص 333

39- نفسه، ص 340.

40- أحمد جعفري، رجال في الذاكرة محمد بن أب المزمري...

41- مبارك جعفري، مرجع سابق، ص 314

42- أحمد جعفري، من تاريخ توات...، ص 170

43- يحي ولد سيدي أحمد، مرجع سابق، ص 360

44- نفسه، ص 368